القسم الثانى

فى نوادر بنى عذرة

جميل بن معمر العذرى وحبيبته بثينة

خرجت بثينة يومًا وكانت النساء إذ ذاك يتزينَّ ويجتمعن ويدنو بعضهن لبعض ويبدون للرجال فى كل عيد فجاء جميل فوقف على بثينة وأختها أم الحسين فى نساء من بنى الأحب فرأى منهن منظراً لطيفًا فقعد معهن ثم انصرف وكان معه فتيان من بنى الأحب فعلم أن القوم قد عرفوا فى نظره حب بثينة ووجدوا عليه فراح وهو يقول:

عجل الفراق وليتهُ لم يعجلِ ... وجرت بوادر دمعك المتهللِ
طربًا وشاقك ما لقيت ولم تخف ... بين الحبيب غداة برقة محولِ
وعرفت أنك حين رحت ولم يكن ... بعد اليقين وليس ذاك بمشكلِ
لن تستطيع إلى بثينة رجعةً ... بعد التفرق دون عامٍ مقبلِ

ثم قال فيها بيتين من قصيدة يصفها بها:

هى البدر حسنًا والنساء كواكب ... وشتان ما بين الكواكب والبدرِ
لقد فضلت بثنٌ على الناس مثل ما ... على ألف شهر فضلت ليلة القدرِ

فلما سمعت بثينة بهذه الأبيات حلفت بالله أن لا يأتيها على خلوة إلا خرجت إليه وأنها لن تتوارى منه، فكان يأتيها عند غفلات الرجال فيتحدث معها ومع أخوتها فنمى إلى رجالها ذلك وكانوا قومًا غيارى فرصدوه وعزموا على قتله فجاء على ناقته الصهباء إلى بثينة وأم الحسين فأخذا يحدثانه فنظر إليهما وأنشد:

لقد ظن هذا القلب أن ليس لاقيًا ... سليمى ولا أم الحنين لحين
فليت رجالاً فيك قد نذروا دمى ... وهموا بقتلى يا بثين لقونى

فبينما هو على تلك الحال إذ وثب عليه القوم فأطلق عنان الناقة فخرجت من بينهم كالسهم ولحق من ظبا سيوفهم.

وعد بثينة لجميل

وعدت بثينة جميلاً يومًا أن يلتقيا فى بعض المواقع، فعلم بذلك قومها فحرسوها ومنعوها من الخروج خارجًا فأتى جميل لوعدها وقعد ينتظر فلم ير لها وجهًا فجعل نساء الحى يقرعنه بذلك ويقلن له إنما حصلت منها على الباطل والكذب والغدر وغيرها أولى بك كما أن غيرك قد صار أولى بها فأنشد:

فلرب عارضة علينا بوصلها ... بالجد تخلطهُ بقول الهاذل
فأجبتها فى القول بعد تستر ... حبى بثينة عن وصالك شاغلى
لو كان فى صدرى بقدر قلامةٍ ... فضلاً وصلتك أو أتتك رسائلى
ويقلن إنك قد رضيت بباطلٍ ... منها فهل لك فى اجتناب الباطل
ولباطل ممن أحب حديثهُ ... أشهى إلىَّ من البغيض الباذل
ليزلن عنك هواى ثم يصلننى ... وإذا هويت فما هواى بزائل
أبثين إنك قد ملكت فاسمحى ... وخذى بحظك من كريم واصل

* * *

تأخير بثينة عن وعدها لجميل

وعدت بثينة جميلاً بخلوة يجتمعان بها وتأخرت عن إيفاء الوعد فحزن جميل وأنشد يقول:

يا صاح عن بعض الملامة أقصرِ ... إن المنى للقاء أم المسورِ
وكأن طارقها على علل الكرى ... والنجم وهنًا قد دنى لتهور
يستاف ريح مدامةٍ معجونة ... بذكى مسك أو سحيق العنبر
إنى لأحفظ غيبكم ويسرنى ... إذ تذكرين بصالح أن تذكرى
ويكون يوم لا أرى لك مرسلاً ... أو نلتقى فيه على كأشهر
يا ليتنى ألقى المنية بغتة ... إن كان يوم لقائكم لم يقدر
أو أستطيع تجلدًا عن ذكركم ... فيفيق بعض صبابتى وتفكرى

قد تجنى كما أجنَّ من الهوى ... لعذرت أو لظلمت إن لم تعذرى
والله ما للقلب من علم بها ... غير الظنون وغير قول المخبر
لا تحسبى أنى هجرتك طائعًا ... حدث لعمرك رائع أن تهجرى
فلتبكينى الباكيات وإن أبح ... يومًا بسرك معلنًا لم أعذر
يهواك ما عشت الفؤاد فإن أمت ... يتبع صداى صداك بين الأقبر
إنى إليك بما وعدت لناظرٌ ... نظر الفقير إلى الغنى المكثر
يعد الديون وليس ينجز موعدًا ... هذا الغريم لنا وليس بمعسر
ما أنت والوعد الذى تعدينني ... إلا كبرق سحابة لم يمطر
قلبى نصحت له فرد نصيحتى ... فمتى هجرتيه فمنهُ تكثرى

* * *

لقاء جميل وبثينة

قال جميل يومًا لأحد أترابه: هل لك فى مساعدتى على لقاء بثينة؟ فمضى معه حتى كمن له فى الوادى وأرسل معه خاتمه إلى راعى بثينة ودفعه إليه، فمضى به إليها ثم عاد بموعد منها إليه، فلما جن الليل جاءتهُ فتحدثا طويلاً حتى أصبحا، ثم ودعها وركب ناقته وهى باكية، فقالت بثينة ادن منى يا جميل فدنا منها وقال:

إن المنازل هيجت أطرابى ... واستعجمت آياتها بجوابى
فترى تلوح بذى اللجين كأنها ... أنضاء رسم أو سطور كتابِ
لما وقفت بها القلوص تبادرت ... منى الدموع لفرقة الأحبابِ
وذكرت عصراً يا بثينة شاقنى ... وذكرت أيامى وشرخ شبابى

* * *

جميل وبثينة وكثير عزة

قال كثير: لقينى جميل مرة فقال لى: من أين أقبلت، قلت: من عند أبى لحبيبة أعنى بثينة، فقال: وإلى أين تمضى، قلت: إلى الحبيبة، أعنى عزة، فقال:

لا بد أن ترجع عودك على بدئك فتستجد لى موعداً من بثينة، فقلت: عهدى بها الساعة وأنا أستحيى أن أعود، فقال: لا بد من ذلك، فقلت: فمتى عهدك بها؟ قال: فى أول العيد، وقد وقعت سحابة بأسفل وادى الردم فخرجت ومعها جارية لها تغسل ثيابها فلما أبصرتنى أنكرتنى وضربت بيدها فى الماء فالتحفت به تستراً، وعرفتنى الجارية فأخبرتها فتركت الثوب فى الماء وتحدثنا حتى غابت الشمس وسألتها الموعد، فقالت: أهلى سائرون وما وجدت أحداً غيرك يا كثير حتى أرسله إليها، فقال له كثير: فهل لك فى أن آتى الحى فأنزع بأبيات من الشعر أذكر فيها هذه العلامة إن لم أقدر على الخلوة بها، قال: ذلك الصواب، فأرسله إليها، فذهب وقال: انتظرنى حتى أعود، ثم سار حتى أناخ بهم، فقال له أبوها: ما ردك يا كثير، قال: ثلاثة أبيات عرضت لى فأحببت أن أعرضها عليك، قال: هاتها، قال كثير فأنشدته وبثينة تسمع من وراء الخدر:

فقلت لها يا عز أرسل صاحبى ... إليك رسولاً والموكل مرسلُ
بأن تجعلى بينى وبينك موعداً ... وأن تأمرينى بالذى فيه أفعل
وآخر عهدى منك يوم لقيتنى ... بأسفل وادى الردم والثوب يغسل

فضربت بثينة صدرها وقالت: اخسأ اخسأ، فقال أبوها: ميهم يا بثينة، قالت: مثلهُ يأتينا إذا نام الناس من وراء هذه الرابية، ثم التفتت إلى الجارية وقالت: ابغى من الدومات حطبًا واذبحى لكثير شاة وسويها له، فقال كثير: أنا أعجل من ذلك وخرج وراح إلى جميل فأخبره، فقال له جميل: الموعد الدومات بعد أن تنام الناس، وكانت بثينة قد قالت لأختها أم الحسين وليلى ونجيا بنات خالتها أنى قد رأيت فى نحو نشيد كثير أن جميلاً معه، وكانت قد آنست إليهنَّ واطمئنت بهن وكاشفتهن بأسرارها فخرجن معها، وكان جميل وكثير خرجا حتى أتيا الدومات، وجاءت بثينة ومن معها فما برحوا حتى برق الصبح، فكان كثير يقول: ما رأيت عمرى مجلسًا قط أحسن من ذلك المجلس ولا مثل علم أحدهما بضمير الآخر ولم أدر أيهما كان أفهم.

* * *

ندر أهل بثينة دم جميل

لما ندر أهل بثينة دم جميل وأهدره لهم السلطان ضاقت الدنيا بجميل، فكان يصعد بالليل كثيب الرمل ويتنسم الريح من نحو حي بثينة ويقول:

أيا ريح الشمـــال أمـا ترينى أهيم وإننى بادى النحـــولِ
هبى لى نسمـة من ريح بثنٍ ومنى بالهبوب إلى جميل
وقولى يا بثينة حسب نفسى قليلك أو أقل من القليل

فإذا ظهر الصبح انصرف، فكانت بثينة تقول لجوارٍ من الحى عندها ويحكن أنى لأسمع أنين جميل من بعض الغيران، فيقلن لها: اتقى الله فهذا شيء يخيله لك الشيطان لا حقيقة له.

* * *

لقاء جميل وكثير عزة

اجتمع كثير بجميل يومًا فقال له: يا جميل أرى بثينة لم تسمع قولك:

يقيك جميل كل سوء أمـا لهُ لديك حديث أو إليك رسولُ
وقد قلت فى حبى لكم وصبابتى محـاسن شعر ذكرهنَّ يطـولُ
فإن لم يكن قولى رضـاك فعلمى هبـوب الصبـا يا بثن كيـف أقولُ
فما غاب عن عينى خيـالك لحظة ولا زال عنهـا والخيـال يزولُ

فقال جميل: أترى عزة يا كثير لم تسمع بقولك:

يقول العـدا يا عز قد حـال دونكم شجاع على ظهر الطريق مصممُ
فقلت لهـا والله لو كان دونكم جهنم مـا راعت فؤادى جهنم
وكيف يروع القلـب يا عز رائعٌ ووجهك فى الظلمـاء للسفر معلمُ
وما ظلمتك النفس يا عز فى الهوى فلا تنقمى حبى فما فيهِ منقمُ

فبكيا ليلتهما إلى أن بزغ الصباح ثم انصرفا.

* * *

احتجاب بثينة عن جميل

خرج جميل لزيارة بثينة ذات يوم فنزل قريبًا من الماء يترصد أمةً لبثينة أو راعية بتخذها واسطة لتبليغ رسالتهِ وإذا بأمة معها قربة واردة على الغدير لتملأها، وكانت عارفة به، ولما تبينها وتبينته سلمت عليه وجلست معهُ وجعل يحدثها ويسألها عن أخبار بثينة ويخبرها بما يعانيه من ألم الفراق ويحملها رسائله إلى بثينة، ثم أعطاها خاتمه وسألها أن تدفعه لها وأخذ عليها موعداً ترجع له فيه ومكث ينتظر رجوعها، فذهبت الجارية إلى أهلها وقد أبطأت عليهم، فلقيها أبو بثينة وزوجها وأخوها فسألوها عما أبطأ بها، فالتوت عليهم ولم تخبرهم بشيء عما حصل لها مع جميل وتعللت عليهم، فضربوها ضربًا مبرحًا ومن ألم الضرب أعلمتهم حالها مع جميل ودفعت إليهم خاتمه، وصدف أنه مر بها فى تلك الحالة اثنان من بنى عذرة فسمعا القصة جميعًا وعرفا الموضع الذى فيه جميل، فأحبا أن يدرآ عنه هذا الخطر فقالا للقوم إنكم إن لقيتم جميلاً وليست بثينة معه ثم قتلتموه لزمكم فى ذلك كل مكروه، وكان أهل بثينة أعز بنى عذرة، فدعوا الأمة وأعطوها الخاتم وأمروها أن توصله إلى بثينة وحذروها من أن تخبرها بأنهم علموا القصة ففعلت ولم تعلم بثينة بما جرى، ومضى الفتيان فانذرا جميلاً وقالا: تقيم عندنا فى بيوتنا حتى يهدأ الطلب ثم نبعث إليها فتزورك وتقضى من لقائها وطرًا وتنصرف آمنًا سليمًا، فقال: أما الآن فابعثا إليها من ينذرها، فأتياه براعية لهما وقالا له: قل حاجتك؟ فقال: ادخلى وقولى لها إنى أردت اقتناص ظبى فحذره منى جماعة اعتوروه من القناص ففاتنى الليلة، فمضت فأعلمتها ما قال لها، فعرفت قصتهُ وبحثت عنها ففهمتها تمامًا فلم تخرج لزيارته تلك الليلة ورصدوها فلم تبرح من مكانها، ومضوا يقتفون أثره فوجدوا ناقته فعرفوا أنه قد فاتها، أما جميل فإنه زاد شوقًا وحزنًا وفاضت عبراته فأنشد:

أبى القلب إلا حب بثنة لم يرد ... سواها وحب القلب بثنة لا يجدى
إذا ما دنت ردت اشتياقًا وإن نأت ... جزعت لنأى الدار منها وللبعد
سلى الركب هل عجنا لمغناك مرةً ... صدور المطايا وهى موقرة تخدى

وهل فاضت العين الشروق بمائها لأجلك حتى اخضلَّ من دمعها ردى
وإنى لأستجرى لك الطير جاهداً لتجرى بيمن من لقائك من سعدى
وإنى لأستبكى إذا الركب غرَّدوا بدركك إن يحيا بك الركب إذ تحدى
فهل تجزينى أم عمرو بودها فإن الذى أخفى بها فوق ما أبدى
وكل محب لم يزل فوق جهده وقد زدتها فى الحب منى على الجهد

ولما ضاقت بأهل بثينة الحيل ائتمنوا عليها عجوزاً منه يثقون بها يقال لها أم منظور، فجاءها جميل وقال لها، أريبى بثينة، فقالت: لا والله لا أفعل وقد ائتمنونى عليها فقال أما والله لأضرنك، فقالت: المضرة والله فى أن أريكها، فخرج من عندها وهو يقول:

ما أنس لا أنس منها نظرة سلفت بالحجر يوم جلتها أم منظور
ولا استلابتها خرساً حبائرها إلىَّ من ساقط الأوراق مستور

فما كان إلا القليل حتى انتهى إليهم هذان البيتان فتعلقوا بأم منظور، فحلفت لهم بكل يمين، فلم يقبلوا منها وعاقبوها على ذلك.

❁ ❁ ❁

زيارة جميل بثينة متنكراً

جاء جميل إلى بثينة ليلة وقد تزيى بزى راعٍ لبعض الحى فوجد عندها ضيوفًا، فانتبذ ناحية وجلس فيها، فسألته من أنت؟ فقال: مسكين، فعشت ضيفانها وعشتهُ وحده ثم جلست هى وجارية لها تجاه النار تصطليان واضطجع القوم منتحين، فقال جميل:

هل البائس المحزون دانٍ فمصطلٍ من النار او معطى لحافًا فلابس

فقالت لجاريتها: صوت جميل والله اذهبى فانظرى، فذهبت ثم رجعت وقالت: هو والله جميل فشهقت شهقة سمعها القوم، فأقبلوا يجرون، وقالوا: ما لك؟ فطرحت بردًا لها فى النار عمدًا وقالت: احترق بردى، فرجع القوم وأرسلت جاريتها إلى حمبل فجاءتها به، فأبقته عندها ثلاثة أيام ثم ودعها وخرج.

❁ ❁ ❁

وشاية الخادم بجميل وبثينة

رصد جميل بثينة فى نجع لبنى عذرة حتى إذا صادف منها فرصة وهى مارة مع أترابها فى ليلة ظلماء ذات رعود وأمطار فحذفها بحصاة فأصابت بعض أترابها، ففزعت وقالت: والله ما حذفنى فى مثل هذا الوقت إلا الجن، فقالت لها بثينة وقد فطنت: انصرفى إلى منزلك، حتى تذهب إلى النوم، فانصرفت وبقى مع بثينة أم الحسين وأم منظور، فقامت إلى جميل فأخذته إلى الخباء معها وتحدثا طويلاً وما زالا على ذى الحال إلى أن أسفر الصباح، فجاء غلام زوجها بصبوح من اللبن بعث بها إليها زوجها، فلما رآها مع جميل منفردة مضى لوجهه حتى يخبر سيده، فرأته ليلى والصبوح فى يده وكانت قد عرفت خبر بثينة وجميل فاستوقفته كأنها تسأله عن حاله وبعثت بجاريتها لها وقالت: حذرى بثينة وجميلاً، فجاءت الجارية فنبهتهما، فلما تبينت بثينة الصبح قد أضاء والناس متنكرين ارتاعت وقالت: يا جميل نفسك نفسك فقد جاءنى غلام زوجى بصبوحى من اللبن فرآنا سوية، فقال لها وهو غير مكترث: علامَ الخوف؟ وأنشد:

لعمرك ما خوفتنى من مخافة ... بثين ولا حذرتنى موضع الحذر
فأقسم لا يلقى لى اليوم غرة ... وفى الكف منى صارم قاطع ذكر

فأقسمت عليه أن يلقى نفسه تحت النضد وقالت: إنما أسألك ذلك خوفًا على نفسى من الفضيحة لا خوفًا عليك، ففعل ما أمرته به وأتت بأم الحسين إلى جانبها، ثم ذهبت خادمة ليلى فأخبرتها الخبر فتركت العبد يمضى إلى سيده، فمضى والصبوح معه وقال رأيت جميلاً مع بثينة فى خباء واحد، فمضى إلى أخيها وأبيها وأخبرهُ الخبر وأخذهما وأتى بهما إلى خباء بثينة، فلما دخلوا إلى الخباء لم يجدوا مع بثينة إلا أم الحسين فخجل زوجها وسب عبده، فقالت ليلى لأخيها وأبيها. قبحكما الله أفى كل يوم تفضحان فتاتكما وتسمعان ما يقال فيها، اما جميل فإنه أقام عند بثينة حتى جنَّ الليل ثم ودعها وانصرف، وخافت بثينة مما جرى فتحامت منه مدة، فزادت به لواعج الهوى وأنشد يقول:

لها فى سواد القلب بالحب منعة ... هى الموت أو كادت على الموت تشرفُ

وما ذكرتك النفس يا بثن مرة ... من الدهر إلا كادت النفس تتلف
وإلا اعترتني زفرة واستكانةٌ ... وجاد لها مستعجل الدمع يذرف
وما استطرفت نفسي حديثًا لخلة ... أسر به إلا حديثك أطرف
ولست بناس أهلها حين أقبلوا ... وجالوا علينا بالسيوف وطوفوا
وقالوا جميل بات في الحي عندها ... وقد جرَّدوا أسيافهم ثم وقفوا

* * *

هرب جميل عن أهله

ولما اشتهر جميل بحب بثينة اعترضهُ عبيد الله بن قطنة أحد بني الأحب وهو من أهلها الأقربين فهجاه، فأجابه جميل وتطاولا، فكف عنه ابن قطنة، ثم اعترضه عمير بن رحل من بني الأحب، فقاومه أيضًا مثل الأول، فشكا أمره إلى عامر بن ربعي الحاكم على بني عذرة وقال: يهجونا ويغشى بيوتنا ويشبب بنسائنا، فأباحهم دمه وطُلب فهرب، ولما علمت بثينة أن جميلاً هجا أهلها غضبت كثيراً وأبدت له كدرها فأنشد جميل يقول:

وما صائب من نائل قذفت به ... يدٌ وممرُّ العقدتين وثيقُ
يا وشك قتلاً منك يوم رميتني ... نوافذ لم تظهر لهن خروقُ
تفرق أهلان بثين فمنهم ... فريق أقاموا واستمر فريقُ

وبعد ذلك بمدة تصالحا وأخذ منها موعد اللقاء، فعلم به قومها وقد شاهدوه عندها فتوعدوه وكرهوا قتلهُ خوفًا من أن ينشب بينهم وبين قومه حرب بدمه، وكان أقوامه أشد بأسًا من قوم بثينة فأعادوا شكواه إلى السلطان، فطلبه طلبًا شديداً، فهرب إلى اليمن وبقي فيها مدة، فتذكر يومًا حبيبته بثينة فأنشد يقول:

ألم خيال من بثينة طارق ... على النأى مشتاق إلى ، شائق
كأن فتيت المسك خالط نشرها ... تقلُّ به أردافها والمرافق
تقوم إذا قامت به عن فراشها ... ويندو به من حضنها من نعانو

ولم يزل في اليمن إلى أن عزل ذلك الوالي وانتقل أهل بثينه .لى ناحية الشام فرجع إليهم فشكا أكابر الحي إلى أبيه وكان ذا مال وفضل وقدر في أهله فناشدوه

الله وسألوه كف ابنه عن فتاتهم وعن تشبيه بها وما يفضحهم به بين الناس، فوعدهم كفه ومنعه ما استطاع ثم انصرفوا، فدعا به وقال له: يا بنى حتى متى أنت راتعٌ فى ظلالك ألا تأنف من أن تتعلق فى ذات بعل يخلو بها زوجها وأنت عنها بمعزل تغرك بأقوالها وخداعها وتريك الصفاء والمودة وهى مضمرة لبعلها ما تضمره الحرة لمن ملكها، فيكون قولها لك تعليلاً وغروراً فإذا انصرفت عنها عادت إلى بعلها على جرى عادتها. إن هذا لذل وخيم، ولا أعرف أخيب سهمًا ولا أضيع عمراً منك، فأنشدك الله إلا كففت وتأملت فى أمرك، فإنك تعلم أن ما قلته حقٌّ ولو كان إليها سبيل لبذلت ما أملكه فيها، ولكن هذا أمر قد فات واستبد به من قدر له وفى النساء عوض، فقال له جميل: الرأى ما رأيت والقول كما قلت ولكن هل رأيت قبلى أحداً قدر أن يدفع هواه عن قلبه أو ملك أن يسلى نفسه أو استطاع أن يدفع ما قضى عليه، والله لو قدرت أن أمحو ذكرها من قلبى أو أزيل شخصها عن عينى لفعلت، ولا سبيل إلى ذلك وإنما هو بلاءٌ بليت به لحين قد أتيح لى، ولكن أنا أمتنع من طروق هذا الحى والإلمام به ولو مت كمداً، وهذا جهدى ومبلغ ما أقدر عليه، وقام وهو يبكى فبكى أبوه ومن حضر جزعًا لما رأوا منهُ من حب بثينة، ثم أنشد:

ألا من لقلب لا يمل فيذهل ... أفق فالتعزى عن بثينة أجملُ
سلا كل ذى ود علمت مكانه ... وأنت بها حتى الممات موكل
فما هكذا أحببت من كان قبلها ... ولا هكذا فيما مضى كنت تفعل
فيا قلب دع ذكرى بثينة إنها ... وإن كنت تهواها تضنُّ وتبخل
وقد أيأست من نيلها وتجهمت ... لليأس إن لم يقدر النيل أمثل
وإلا فسلها نائلاً قبل بينها ... وأبخل بها مسئولة حين تسأل
وكيف ترجى وصلها بعد بعدها ... وقد جدَّ حبل الوصل ممن تؤمل
وإن التى أحببت قد حيل دونها ... فكن حازمًا والحازم المتحول
ففى اليأس ما يسلى وفى الناس خلة ... وفى الأرض عمن لا يواتيك معزل
بدا كلف منى بها فتأملت ... وما لا يرى من غائب الوجد أفضل
هبينى بريئًا نلته بظلامة ... عفاها لكم أو مذنبًا يتنصل

* * *

وداع جميل لبثينة قبل سفره

لما ضاقت بجميل الحيل وأراد الخروج إلى الشام هجم ليلاً على بثينة وقد وجد غفلة فى الحى، فقالت له: أهلكتنى والله وأهلكت نفسك ويحك أما تخاف؟! فقال لها: هذا وجهى إلى الشام وإنما جئتك مودعًا، فحادثها طويلاً ثم ودعها، وقال: يا بثينة ما أرانا نلتقى بعد هذا، وبكى بكاءً طويلاً وبكت ثم قال وهو يبكى:

ألا لا أبالى جفوة الناس إن بدا ... لنا منك رأى يا بثين جميل
وإنى وتكرارى الزيارة نحوكم ... بثين بذى هجر بثين يطول
وإن صباباتى بكم لكثيرة ... بثين ونسيانكم لقليل

وخرج إلى الشام وطال غيابه فيها، ثم قدم من الشام وبلغ بثينة خبره فراسلته مع بعض نساء الحى تشكو شوقها إليه ووجدها به وطلبها للحيلة فى لقائه ووعدته لموضع يلتقيان فيه، فسار إليها وحدثها وبث إليها أشواقه وأخبرها خبره بعدها، وقد كان أهلها رصدوها فلما فقدوها تبعها أبوها وأخوها حتى هجما عليهما، فوثب جميل وانتصل سيفه وشد عليهما، فانقياه بالهرب، وناشدته بثينة الله أن ينصرف وقالت له: إن أقمت فضحتنى ولعل الحى أن يلحقوا بك، فأبى وقال: أنا مقيم وامضى أنت وليصنعوا بى ما أحبوا، فلم تزل تنشده حتى انصرف وقد هجرته وانقطع التلاقى بينهما، فلقى ابن عمه روقًا ومسعدة فشكا إليهما ما به وأنشد:

زورا بثينة فالحبيب مزورُ ... إن الزيارة للمحب يسيرُ
إن الترحل أن تلبس أمرنا ... وأعناقنا قدرٌ أحم بكورُ
إنى عشية رحت وهى حزينة ... تشكو إلىّ صبابة لصبورُ
وتقول بت عندى فديتك ليلة ... أشكو إليك فإن ذاك يسيرُ
غراءُ مبسام كأن حديثها ... درٌّ تحدر نظمهُ المنثورُ
لا حسنها حسنٌ ولا كدلالها ... دلٌّ ولا كوقارها توقيرُ
إن اللسان بذكرها لموكلٌ ... والقلب صادٍ والخواطر صورُ

ولئن جـزيت الود منى مثلهُ إنى بذلك يا بثين جـديرُ

فقال له روق: إنك لعاجزٌ ضعيف فى استكانتك لهذه المرأة وذلك الاستبداد بها ومع كثرة النساء ووجود من هو أجمل منها، وإنك منها بين فجور أرفعك عنهُ وذل لا أحبهُ لك وكمد يؤديك إلى التلف ومخاطرة بنفسك لقومها، إن تعذرت لهم بعد إعذارهم إليك وإن صرفت نفسك عنها وغلبت هواك فيها وتجرعت مرارة الحزم وصبرت نفسك عليها طائعة أو كارهة ألفت ذلك وسلوت. فبكى جميل وقال: يا أخى لو ملكت اختيارى لكان ما قلت صوابًا ولكنى لا أملك لى اختياراً وما أنا إلا أسير لا يملك لنفسه نفعًا، وقد جئتك لأمر أسألك أن لا تكدر ما رجوته عندك فيه بلوم وأن تحمل على نفسك فى مساعدتى، قال فإن كنت لا بد مهلكًا نفسك فاعمل على زيارتها ليلاً فإنها تخرج مع بنات عم لها إلى ملعب لهنَّ فأجىء معك حينئذٍ سراً، ولى أخ من رهط بثينة من بنى الأحب تأوى عنده نهاراً فأسأله مساعدتك على هذا فتقيم عنده نهاراً وتجتمع معها ليلاً إلى أن تقضى أربك فشكره ومضى روق إلى الرجل الذى من رهط بثينة فأخبره الخبر واستعهده كتمانهُ وسأله مساعدته فيه، فقال له: لقد جئتنى بإحدى العظائم، ويمكن أن فى هذا معاداتى الحى جميعًا إن فطن به، فقال: أتحرز فى أمره من أن يظهر، فواعده فى ذلك ومضى إلى جميل فأخبره بالقصد، فأتيا الرجل ليلاً فأقاما عنده وأرسل إلى بثينة بوليدة له بخاتم جميل، فدفعته إليها، فلما رأته عرفت الأمر فتبعتها وجاءته، فتحدثا ليلتهما وأقام بموضعه ثلاثة أيام، ثم ودعها وقال لها: عن غير قلى والله ولا ملل يا بثينة كان وداعى لك ولكنى قد تذممت من هذا الرجل الكريم وتعريضه نفسه لقوله، وقد أقمت عنده ثلاثة أيام، ثم انصرف وقد تذكر عذل روق له فأنشد:

لقـد لامنى فيهـا أبٌ ذو قرابة حبيب إليـه فى ملامتـه رشدى
وقال أفق حتى متى أنت هـائم ببثنة فيها قد تعيد وقـد تبـدى
فقلت له فيها قضى الله مـا ترى علىَّ وهل فيمـا قضى الله من بدِّ
فإن يك رشداً حبهـا أو غواية فقد جئتهُ مـا كـان منى عن عمـد
قـد لج ميثـاقٌ مـن الله بيننـا وليس لمن لم يـوف لله مـن عهـد
فلا وأبيها الخير ما خنت عهـدهـا ولا لى علم بالذى فعلـت بعـدى
ومـا زادهـا الواشون إلا كرامة على ومـا زالت مودتهـا عندى

أفى الناس أمثالى أحبٌّ فحالهم كحالى أم أحببت من بينهم وحدى
وهل هكذا يلقى المحبون مثل مـا لقيت بها أم لم يجد أحد وجـدى

* * *

عزة بثينة وجميل

وقع بين بثينة وجميل هجر فى غيرة كان غار عليها من فتى كان يتحدث إليها من بنى عمها، فكان جميل يتحدث إلى غيرها فيشق ذلك على بثينة وعلى جميل، وجعل كل واحد منهما يكره أن يبدى لصاحبه شأنه، فدخل جميل يومًا وقد غلب عليه الأمر إلى البيت الذى كان يجتمع فيه مع بثينة، فلما رأته جاءت إلى البيت ولم تبرز له، فجزع لذلك وجعل كل واحد منهما يطالع صاحبه وقد بلغ الأمر من جميل كل مبلغ فأنشأ يقول:

لقد خفت أن يغتالنى الموت عنـوةً وفى النفس حاجات إليك كما هيا
وإنى لتثنينى الحفيظـة كلمـا لقيتك يومًا أن أبثـك مـا بيا
ألم تعلمى يا عذبة الريق أننى أظل إذا لم أسق ريقك صاديًا

فرقت له بثينة وقالت لجارية لها كانت معها: ما أحسن الصدق بأهله ثم اصطلحا، فقالت له: أنشدنى قولك:

تظل وراء الستر ترنو بلحظها إذا مرَّ من أترابها من يروقها

فأنشدها إياه فبكت وقالت: كلا يا جميل ومن تراه يروقنى غيرك

* * *

عفاف جميل وبثينة

وشت جارية بجميل وبثينة إلى أبيها، وأنه الليلة عندها، فأتى وأخوها مشتملين معتمدين سيفهما لقتله فسمعاه يقول لها بعد شكوى شغفه بها: هل لك فى طفء ما بى بما يفعل المتحابان، فقالت: قد كنت عندى بعيداً من هذا ولو عدت إليه لن ترى وجهى أبداً، فضحك وقال: والله ما قلته إلا اختياراً ولو أجبت إليه لضربتك

بسيفى هذا إن استطعت وإلا هجرتك أما سمعت قولى:

وإنى لأرضى من بثينة بالذى ... لو أبصره الواشى لقرت بلابله
بلا وبأن لا أستطيع وبالمنى ... وبالأمل المرجو قد خاب آمله
وبالنظرة العجلى وبالحول ينقضى ... أواخره لا نلتقى وأوائله

فلما سمعا ما دار من الكلام بينهما قالا فلندعهما والله سوية لأن من كانت هذه حالته لا يجوز منع الزيارة عنه أو الاجتماع بها وانصرفا.

* * *

موت جميل ونعيه إلى بثينة

دعا جميل يومًا وهو فى مصر رجلاً فقال له: هل لك فى أخذ كل ما أخلفه على أن تفعل شيئًا أعهده إليك؟ قال سمعًا وطاعة، قال: إذا أنا مت فخذ حلتى هذه وأبقها جانبًا وخذ ما بقى لك وارحل إلى رهط بنى الأحب من عذرة وهم رهط بثينة فإذا صرت إليهم فاركب ناقتى والبس حلتى واشققها ثم اعتل قمة عالية وأنشد هذه الأبيات دون خشية لائم وأنشد:

صدع النعىُ وما كنى بجميل ... وثوى بمصر ثواء غير قفول
ولقد أجزَّ الذيل فى وادى القرى ... نشوان بين مزارع ونخيل
قومى بثينة فاندبى بعويل ... وابكى خليلك دون كل خليل

وبعد ذلك قضى نحبه فواراه التراب وأتى رهط بثينة وفعل ما أمره به جميل فما أتم الأبيات حتى برزت إليه امرأة يتبعها نسوة قد فاقت عليهن طولاً وبرزت أمامهن كالبدر فى دجنة وهى تختال فى بردها فقالت: يا هذا، والله لئن كنت صادقًا لقد قتلتنى ولئن كنت كاذبًا لقد فضحتنى قال: والله ما أنا إلا صادق وأخرج حلته، فلما رأتها صاحت بأعلى صوتها وصكت وجهها واجتمع نساء الحى يبكين معها ويندبنه حتى صعقت فمكثت مغشيًا عليها ساعة ثم قامت وهى تقول:

وإن سلوى عن جميل لساعة ... من الدهر ما حانت ولا حان حينها
سواءٌ علينا يا جميل بن معمر ... إذا مت بأساءُ الحياة ولينها

وما زالت تكرر هذين البيتين حتى ماتت بعد ثلاثة أيام من سماعها بموت جميل.

ما حدثته بثينة عن جميل

حدثت بثينة ـ وكانت صدوقة اللسان جميلة الوجه حسنة البيان عفيفة قالت: والله ما أرادنى جميل رحمة الله عليه بريبة قط ولا حدثت أنا نفسى بذلك منه، وإن الحى انتخبوا موضعًا، وإنى لفى هودج لى أسير إذا أنا بهاتف ينشد أبياتًا، فلم أتمالك أن رميت بنفسى وأهل الحى ينظرون، فبقيت أطلب المنشد فلم أقف عليه، فناديت: أيها الهاتف بشعر جميل ما وراءك منه، وإنى أحسبه قد قضى نحبه ومضى لسبيله، فلم يجبنى مجيب، فناديت ثلاثًا وفى كل ذلك لا يرد على أحد شيئًا، فقالت صويحباتى: أصابك يا بثينة طائف من الشيطان، فقلت: كلا لقد سمعت قائلاً يقول: قلن نحن معك ولم نسمع، فرجعت فركبت مطيتى وأنا حيرى والهة العقل كاسفة البال، ثم سرنا، فلما كان فى الليل إذا ذلك الهاتف يهتف بذلك الشعر بعينه، فرميت بنفسى وسعيت إلى الصوت، فلما قربت منه انقطع، فقلت: أيها الهاتف ارحم حيرتى وسكن عبرتى بخبر هذه الأبيات فإن لها شأنًا، فلم يرد على شيئًا، فرجعت إلى رحلى فركبت وسرت وأنا ذاهبة العقل وفى كل ذلك لا يخبرنى صويحباتى أنهنَّ سمعن شيئًا، فلما كانت الليلة القابلة نزلنا وأخذ الحى مضاجعهم ونامت كل عين فإذا الهاتف يهتف بى ويقول: يا بثينة أقبلى إلىَّ أنبئك عما تريدين، فأقبلت نحو الصوت فإنه شيخ كان من رجال الحى، فسألته عن اسمه وبيته فقال: دعى هذا وخذى فيما هو أهم عليك، فقلت له: وإن هذا لمما يهمنى، قال: اقنعى بما قلت لك، فقلت له: أنت منشد الأبيات، قال: نعم، قلت فما خبر جميل، قال: فارقته وقد قضى نحبه وصار إلى حفرته رحمة الله تعالى عليه فصرخت صرخة آذيت منها الحى وسقطت لوجهى فأغمى على، فكأن صوتى لم يسمعه أحد وبقيت سائر ليلتى، ثم أفقت عند طلوع الفجر وأهلى يطلبوننى فلا يقفون على موضعى، ورفعت صوتى بالعويل والبكاء ورجعت إلى مكانى، فقال لى أهلى: ما خبرك وما شأنك فقصصت عليهم القصة، فقالوا رحم الله جميلاً، واجتمع نساء الحى وأنشدتهن الأبيات، فأسعدننى بالبكاء، فلم نزل كذلك مدة أيام ثلاث، لم أكتحل بعدها بإثمدٍ ولا فرقت رأسى

بمخيط ولا مشط ولا دهنته إلا من صداع خفت على بصرى منه، ولا لبست خمارًا مصبوغًا ولا إزارًا، ولا أزال كذلك أبكيه إلى الممات.

* * *

قيس بن ذريح العذرى ولبنى بنت الحباب

كان قيس بن ذريح العذرى ذاهبًا لبعض حاجاته فمر ببنى كعب وقد احتدم الحر فاستقى الماء من خيمة منهم، فبرزت إليه فتاة مديدة القامة بهية الطلعة عذبة الكلام سهلة المنطق فناولته إداوة ماء، فلما شرب قالت: ألا تبرد الحر عندنا، وقد تمكنت من فؤاده، فقال: نعم، فمهدت له فدخل فجاء أبوها فوجده فرحب به غاية الترحاب ونحر له جزورًا، فأقام عندهم ضياءَ اليوم ثم انصرف وهو أشغف الناس بها، فجعل يكتم ذلك إلى أن غلب عليه فنطق فيها بالأشعار وشاع ذلك عنه، ومرَّ بها ثانيًا فنزل عندهم وشكا إليها حين تخاليا ما نزل به من حبها، فوجد عندها أضعاف ذلك، فانصرف، وقد علم كل واحد ما عند الآخر، فمضى إلى أبيه فشكا إليه ذلك، فقال له دع هذه وتزوج بإحدى بنات عمك، فغمَّ منه وجاء إلى أمه، فكان منها ما كان من أبيه فتركها وجاء إلى الحسين بن على بن أبى طالب وأخبره بالقصة، فرثى له والتزم أن يكفيه هذا الشأن فمضى معه إلى أبى لبنى فسأله فى ذلك فأجاب ثم قال إنه من اللائق أن يكون ذلك من أبيه شأن العرب فى هذه الأحوال، فشكره ومضى إلى أبى قيس حافيًا عى حرّ الرمل، فقام ذريح ومرغ وجهه على أقدامه ومشى مع الحسين إلى أبى لبنى فزوج قيسًا بها ولما تزوج بها أقام معها على أحسن مراتب الحب والإقبال ولكن لم تلد لهُ ولدًا، فساء ذلك أباه فعرض عليه أن يتخذ غير زوجته وأن ذلك أحفظ لنفسه وأبقى لماله ونسله فامتنع وقال لا أسوءها قط وقام يدافع عنها عدة سنين إلى أن أقسم أبوه أن لا يدخل البيت إلا ولبنى طالق منه، فكان إذا اشتد الحر يستظل بردائه ويصلى بحر الشمس حتى يجىء الفىء فيدخل إلى لبنى فيتعانقان ويتباكيان وهى تقول له: لا تفعل فأهلك، ثم خشى قيس أبيه فأذعن لما أشار به فلما أزمعت الرحيل بعد العدة جاء وسأل الجارية عن أمرهم فقالت: سل لبنى، فأتى إليها فمنعه أهلها وأخبروه أنها

ترتحل الليلة أو غداً، فسقط مغشيًا عليه فلما أفاق أنشد:

وإنى لمفنٍ دمع عينى بالبكا ... حذار الذى قد كان أو هو كائن
وقالوا غداً أو بعد ذاك بليلة ... فراق حبيب لم يبن وهو بائن
وما كنت أخشى أن تكون منيتى ... بكفيك إلا أن ما حان حائن

فلما حملت إلى المدينة يئس قيس واشتد شوقه وزاد غرامه وأفضى به الحال إلى مرض ألزمه الوساد واختلال العقل واشتغال البال، فلام الناس أباه على سوء فعله فجزع وندم وجعل يتلطف به، فلما آيس منه استشار قومه فى دائه، فاتفقت آراؤهم على أن يذهب فيتصفح أحياء العرب علهُ يرى منْ تسليه عن حب لبنى، ففعل حتى نزل بحى من فزارة فرأى جارية قد حسرت عن وجهها اللثام وهى كالبدر حسنًا، فسألها عن اسمها، فقالت: لبنى، فسقط مغشيًا عليه، فارتاعت وقالت: إن لم تكن قيسًا فمجنون، ونضحت على وجهه الماء، فلما أفاق استنسبته، فإذا هو قيس لبنى، وكان أمرهما اشتهر فى العرب، وجاء أخوها فأخبرته فركب حتى استرده وأقسم عليه أن يقيم عنده شهراً.

فأجاب دعوته، ثم بلغ قيسًا أن لبنى عاتبة عليه وعلى ما صدر منه، فندم قيس وسار وقد اشتد به الغرام حتى وصل محل قومها، فقالت له النساء: ما شأنك وقد رحلت مع زوجها، فلم يلتفت حتى أتى محل خبائها فتمرغ به وأنشد:

إلى الله أشكو فقد لبنى كما شكا ... إلى الله فقد الوالدين يتيمُ
يتيم جفاه الأقربون فجسمه ... نحيل وعهد الوالدين قديمُ

ولما عادت رآها فبهت صامتًا ثم عاد، فأرسلت إليه مع امرأة لها تستخبر عنه فأنشد:

إذا طلعت شمس النهار فسلمى ... فآية تسليمى عليك طلوعها
بعشر تحيات إذا الشمس أشرقت ... وعشر إذا اصفرت وحان رجوعها
ولو أبلغتها جارة قولى اسلمى ... بكت جزعًا وارفض منها دموعها

ثم زاد وجده فمرض وزاد فى جسمه الألم، فعاده الطبيب وعرف ما به من الوجد وما يلقاه من حب لبنى فقال له منذ كم وجدت بهذه المرأة ما وجدت، فأنشد:

تعلق روحى روحها قبل خلقنا ... ومن بعد ما كنا صغيرين فى المهدِ

فزاد كمـ ـد وأصبح ناميًا وليس إذا متنا بمنفصم العقـد
ولكنه باقٍ على كل حـادث وزائرنا فى ظلمة القبر واللحـد

وما كاد يهجر الوساد حتى علم بموت لبنى فهاجت منه عوامل الأسى وقصد قبرها فبكى حتى أغمى عليه ثم عاد إلى بيته مريضًا فأنشد:

عيد قيس من حب لبنى ولبنى داءُ قيس والحب صعبٌ شديدُ
فإذا عـادنى العـوائد يومًا قالت العين لا أرى مـا أريدُ
ليت لبنى تعـودنى ثم أقضى إنها لا تعود فيمن يعـودُ
ويح قيس لقـد تضمن منهـا داء خبل فالقلب منه عميـدُ

ثم قضى بعد ذلك بثلاثة أيام.

* * *

جعد بن مهجع العذرى وأسماء

كان لجعد بن مهجع العذرى أخوالٌ حوَّل مالهُ إليهم خشية التلف فأقام عندهم ثم خرج يومًا على فرس وقد صحب شرابًا، فاشتد الحر وظهرت له دوحة فقصدها ونزل تحتها، فما لبث أن لاح له شخص عليه درع أصفر وعمامة سوداء يطرد أتانًا شاردًا حتى قتلهُ، ثم قصد الدوحة ونزل بها، فحادثهُ فوجد فى ألفاظه عذوبة لا تقدر وخلب عقلهُ، فدعاه إلى الشراب فشرب وقام ليصلح من شأن فرسه فتزحزح الدرع عن ثدى كحق العاج، فقال: امرأة أنت؟ فقالت: نعم، ولكن شديدة العفاف حسنة الأخلاق والمفاكهة، فعلقها من تلك الساعة، وسألها الزيارة، فذكرت أن لها إخوة شرسة وأبًا كذلك ثم مضت، فلما طالت مدة الفراق زاد حزنه وسقامه ولازم الوساد سنة كاملة، ثم شكا إلى أحد أصحابه فأشار عليه أن يخطبها من أبيها ومضى معهُ حتى نزلا بالشيخ، فأحسن ملقاهما ورحب بهما، فقال له: قد أتيتك خاطبًا، قال فوق الكفاءة وزوجه بها، فلما كان الغد صادفه صديقه وسأله عن حاله معها، فقال: أبدت لى كثيرًا مما أخفته عنى قديمًا وسألتها عن ذلك فأنشدت:

كتمت الهـوى أنى رأيتك جارعًا فقلت فتًى بعد الصـديق يريد

فإن تطرحنى أو تقـول فتيـة يضر بهـا برح الهـوى فتعود
فورّيت عما بى وفى الكبد والحشا من الوجـد برح فاعلمنّ شديد
فبارك لهما وانصرف.

* * *

أبو مالك بن النضر العذرى وابنة عمه

قال شبابة بن الوليد: إن فتًى من بنى عذرة يقال لهُ أبو مالك بن النضر كان عاشقًا لابنة عم له عشقًا شديدًا، فلم يزل على ذلك مدة، ثم إنه فقد بضع عشر سنين ولم يعلم خبره، فضلت إبل لى فخرجت فى طلبها، فبينا أنا أسير فى الرمال إذا بهاتف يهتف بصوت ضعيف وهو يقول:

يا ابن الوليد ألا تحمـون جـاركم وتحفظـون له حـق القرابـاتِ
عهدى إذا جار قوم نابهُ حـــدث وقوه من كل أضرار الملماتِ
هذا أبو مالك المسى ببلقعـة مـع الضبـــاع وآساد بغاباتِ
طريح شـوق بنار الحب محترق تعتـــاده زفرات إثر لوعـات
أمـــا النهـار فيضنيـه تذكـره والليل مرتقب للصبـح هل يأتى
يهذى بجارية من عذرة اختلست فؤاده فهـو منهـا فى بليات

فقلت: دلنى عليه رحمك الله فقال: نعم اقصد الصوت فلما قصدت غير بعيد سمعت أنينًا من خباء فأصغيت إليه فإذا قائل يقول:

يا رسيس الهوى أذبت فؤادى ومـلأت الحشا عـذابًا أليمًا

فدنوت منه فقلت: أبو مالك، فقال: نعم قلت ما بلغ بك ما أرى قال حب سعاد ابنة أبى الهيذم العذرى فشكوت يومًا إلى ابن عم لنا من الحى ما أجد من حبها فاحتملنى إلى هذا الوادى منذ بضع عشر سنين ويأتينى كل يوم بخبرها ويقوتنى حفظه الله من عنده فقلت له إنى أصير إلى أهلها فأخبرهم بما رأيت قال أنت وذاك فانصرفت إلى أهل الجارية فخبرتهم بحال الفتى وما رأيت منه وحدثتهم حديثهُ فرقوا له وعزموا على تزويجه بحضرتى فعدت إليه لأفرج عنه فلما أخبرته الخبر حدد النظر إلى ثم تأوه تأوهًا شديدًا بلغ من قلبى وأنشأ يقول:

الآن إذ حشرجت نفسي وخامرها فراق دنيا وناداها مناديها

ثم زفر زفرة فمات فدفنته في موضعه ثم انصرفت فأعلمتهم الخبر فأقامت الجارية ثلاثة أيام دون أكل ولا شرب ثم ماتت على الأثر.

* * *

ذرعة بن خالد العذري

كان ذرعة بن خالد العذري غلامًا حسن الوجه عذب المنطق سخي الكف حسن الشمائل فخرج يومًا للصيد فلما ورد المشرعة وجد النساء يغترفن الماء ودونهن جارية قد انفردت تمشط شعرها على جانب الغدير وقد أسبلته على وجهها المنير من خلاله كما ينير البدر في غاسق الدجى، فلما أبصرها سقط مغشيًا عليه، فقامت فرشت عليه الماء فلما أفاق وأبصرها قال: وهل مقتول يداويه قاتله، قالت: كفيت ما تشكو وحادثته فثابت نفسه إليه وقد داخلها ما داخله من الحب ثم عاد وهو يقول: خرجنا لنصيد فاصطدنا ثم أنشد:

خرجت أصيد الوحش صادفت قانصًا من الريم صادتني سريعًا حبائله

فلما رمـــاني بالنبـــال مسارعًا رقاني وهل ميتٌ يداويه قاتله

ألا في سبيل الحب صب قد انقضى سريعًا ولم يبلغ مرادًا يحـــاوله

ثم إنه لزم الوساد أيامًا فسألت أمه عن ذلك فأطلعها الخبر فإذا هي ظريفة بنت صفوان بن وائلة فمضت إليها وأعلمتها القصة وتضرعت إليها أن تزور بيتهم علها تشفي ما بابنها، فقالت إن الوشاة كثيرون ولكن خذي الشعر إليه فإن أمسكه فإنه يشفى فلما ذهبت إليه جعل يتنشفه فعادت إليه نفسه شيئًا فشيئًا فصار يأتي قريبًا من بيتها فيتسارقا النظر إلى أن فطن أهلها فآلوا على قتله فسار إلى اليمن وكان كلما اشتد شوقه قبل الشعر وجعلهُ على وجهه فيستريح لذلك ففي ذات يوم بعث ولدًا نحو بيتها فسمعها تنشد وتقول:

رعى الله من هـام الفؤاد بحبه ومن كدت من شوقي إليه أطيرُ

لئن كثرت بالقلب أتراح لوعـة فإن الوشاة الحـاضـرين كثيرُ

فإن لم أزر بالجسم رهبـة عاذل فللقلبُ آتٍ نحـوكم فيزورُ

فعاد الصبى وأنشد له الأبيات فأغمى عليه ساعة ثم أفاق وأنشد:

أظن هـوى الخـود العزيزة قاتلى فيا ليت شعرى ما بنو العم صنعُ
أراهم وللرحمـن در صنعهـم تراكى دمى هدراً وخـاب المضيعُ

ثم أتاه الخبر بزفاف ظريفة إلى رجل يقال له ثعلب فلما بلغه ذلك اضطرب ساعة ثم أغمى عليه فحركوه فإذا به ميت.

* * *

مالك بن عقيل العذرى ومعشوقته سعدى

كان مالك بن عقيل العذرى يحب سعدى حبًا شديداً، وكانت ذات فصاحة وجمال وأدب ولطف وكمال، وكان فى الحى رجل يحبها وهى لا تحبه فغار منهما فوشى به إلى أهلها، فحجبوها عنه فتراسلا بالمحبة، وبلغه فأرسل زوجته عن لسانها إلى مالك بشتم وقطيعة، ولم يعرف أنها زوجة ذلك الرجل، ولم تدر الزوجة تفصيل الأمر، وكان عند مالك أنفة فخرج إلى مكة ناقضًا للعهد، فلما بلغ زوجة ذلك الرجل وجه الحيلة وما أخفاه زوجها أخبرت سعدى بما تم فخرجت على وجهها إلى مكة حتى اجتمعت به وكان مالك مع كعب بن مسعدة الغفارى يمشيان فى القمر فسمعها كعب تقول إلى نسوة بجانبها: إى والله هو ثم قربن من كعب فقالت إحداهن قل لصاحبك:

ليست لياليك فى حج بعـائدة كما عهدت ولا أيام ذى سلم

فقال كعب لمالك: قد سمعت فأجب، قال: قد انقطعت فأجب أنت، فقال ولم يحضره غيره:

فقلت لها يا عزّ كل مصيبة إذا وطنت يومًا لها النفس ذلت

وانصرفا فما استقر بهما المقام إلا وجارية تقول: أجب المرأة التى كلمتك فلما جاء كعب إليها قالت: أنت المجيب، قال: نعم، قالت: فما أقصر جوابك، قال: لم يحضرنى غيره، فقالت: لم يخلق الله أحب إلىَّ من الذى معك، فقال: علىَّ أن أحضره إليك، فقالت: هيهات فضمنه الليلة القابلة فرآه فى منزله فأخبره بالقصة كالمكاشف وقال: لقد ضمنت لها حضورك الليلة القابلة، فلما كان الوقت

مضيا فإذا بالمجلس قد طيب وفرش فجلس مالك وجلست سعدى أمامه فتعاتبا فأنشدته أبيات عبد الله بن الدمينة:

وأنت الذى أخلفتنى ما وعدتنى ... وأشمت بى من كان فيك يلومُ
وأبرزتنى للنـــاس ثم تركتنى ... لها عرضًا أرمى وأنت سليمُ
فلو كان قولاً يكلم الجسم قد بدا ... بجسمى من قول الوشاة كلوم

فأجابها:

غدرتِ ولم أغدر وخنتِ ولم أخن ... وفى بعض هذا للمحب عزاء
جزيتك ضعف الودّ ثم حرمتنى ... فحبـــك فى قلبى إلىَّ إذاء

فالتفتت إلى كعب وقالت: ألا تسمع، فغمزه فكف ثم أنشدت:

تجاهلت وصلى حين لاحت عمايتى ... فهلا صرمت الحبل إذ أنا أبصرُ
ولى من قوى الحبل الذى قد قطعته ... نصيب ولا رأى وعقل موقر
ولكننى آذنت بالصرم بغتة ... ولست على مثل الذى جئت أقدر

فأجابها:

لقد كنت أنهى النفس عنك لعلها ... إذا وعدت بالنأى عنك تطيبُ

ثم قبلها وأنشد:

دمى عليك من الجفون سكوبُ ... والقلب منك مروّع مكروبُ
لا شىء فى الدنيا ألذُّ من الهوى ... إن لم يخن عهد الحبيب حبيب

فأجابته:

خلوتم بأنواع السرور وهاكم ... وأقربتمونى للصبابة والحزنِ
وعذبتمونى بالصدود وإننى ... لراضٍ بما ترضونه لى من الغبن

ثم افترقا فقالت لكعب: ما قلت لك إنك لا تفى بضمانتك ولكن إذا كان السحر فاتنى، فجاء كعب فإذا بالصياح فسأل الجارية عن الخبر، فقالت: حين خرجتما جعلت سعدى فى عنقها ما خنقت به نفسها فلحقناها فخلصناها، فجلست ساعة تحادثنا وتفتكر فتقول: إنه لقاسى القلب ثم شهقت فماتت فلما بلغ الشاب خبر موتها ندم ثم لزم قبرها فجاءته فى النوم فقالت: هلا كان هذا من قبل فمات من وقته.

* * *

عروة بن حزام وعفراء العذرية

كان لعروة بن حزام ابنة عم من أعظم مشاهير عصرها حسنًا وجمالاً وأدبًا وظرفًا وفصاحة تدعى عفراء فربيا معًا وله من العمر أربع سنين فكان يألفها وتألفه ويلعبان معًا غالب الأحيان، فلما بلغا الحلم سأل عمه تزويجها فوعده ذلك وأخرجه إلى الشام فجاء ابن أخ له يدعى أثالة بن سعيد بن مالك فرأى عفراء خارجة من خدرها حاسرة عن وجهها ومعصميها وعليها إزار خز فوقعت من قلبه بمكانة عظيمة فخطبها من عمه فزوجه بها وعادوا إلى الشام فلما بلغ عروة ذلك بهت لا يحر جوابًا ورادت به لواعج النوى فأنشد:

وإنى لتعرونى لذكراكِ رعـــدة ... لها بين جلدى والعظـام دبيبُ
فما هـو إلا أن أراهـا فجـاءة ... فأبهت حتى مـا أكـاد أجيب
فقلت لعراف اليمامـــة داونى ... فإنـك إن أبرأتـنى لطبيـــب
فما بى مـن حمى ولا مس جنة ... ولكن عمى الحميـرى كـذوب
عشيـة لا عفـراء منك بعيـدة ... فتسلـو ولا عفـراء منـك قريب
وبى من جوى الأحزان والبعد لوعة ... تكـاد لهـا نفس الشفيـق تـذوب
ومـا عجب موت المحبين فى الهوى ... ولكن بقـاء العـاشقيـن عجيب

وما بلغ الحى حتى أخذه الهذيان والقلق وأقام أيامًا لا يتناول طعامًا حتى شفت عظامه ولم يخبر بسره أحدًا، ولما أشفى ويئس من الشفاء وعلم الضجر من أهله قال لهم: احتملونى إلى البلقاء فإنى أرجو الشفاء فلما حل بها وجعل يسارق عفراء النظر فى مرورها عاودته الصحة فأقام كذلك إلى أن لقيه شخص من عذرة فسلم عليه، فلما أمسى دخل العذرى على زوج عفراء وقال له: متى أتى هذا الوغد فقد فضحكم بكثرة تشبيبه، فقال: من تعنى؟ قال: عروة، قال: أنت أحق بما وصفت والله ما علمت بقدومه وكان زوج عفراء متصفًا بالسيادة ومحاسن الأخلاق فى قومه فلما أصبح جعل يتصفح الأمكنة حتى لقى عروة فعاتبه وأقسم أن لا ينزل إلا عنده، فوعد ذلك، فذهب مطمئنًا أما عروة فإنه عزم أن لا يبيت الليل وقد علموا به فخرج فعاوده المرض فتوفى بواد القرى دون منازل قومه فلما

بلغ عفراء موته قالت لزوجها: قد تعلم ما بينك وبيني، وبين الرجل من النسابة وما عندى من الوجد وإن ذلك على الحسن الجميل فهل تأذن لى أن أخرج إلى قبره فأندبه فقد بلغنى أنه قضى قال ذلك إليكِ فخرجت حتى أتت قبره فتمرغت عليه وبكت طويلاً ثم أنشدت:

ألا أيها الركب المجدون ويحكم ... بحقٍّ لقيتم عروة بن حزامِ
فإن كان حقًا ما تقولون فاعلموا ... بأن قد نعيتم بدر كل ظلام
فلا لقى الفتيان بعدك راحة ... ولا رجعوا عن غيبة بسلام
ولا وضعت أنثى تمامًا بمثله ... ولا فرحت من بعده بغلام

ولما فرغت من الشعر ألقت نفسها على القبر وأنشدت تقول بطرف قد عراه الأفول:

عدانى أن أزورك يا خليلى ... معاشر كلهم واشٍ حسودُ
أشاعوا ما علمت من الدواهى ... وعابونا وما فيهم رشيد
فأما إذ ثويت اليوم لحدًا ... فدور الناس كلهم اللحود
فلا طابت لى الدنيا مذاقًا ... فبعدك لا يطيب لى المديد

وما فرغت من شعرها حتى غابت عن الوجود فحركت فإذا هى ميتة فدفنت إلى جانب حبيبها.

* * *

مصرع عاشق من بنى عذرة

قال أحدهم: اجتزت فى بعض أسفارى حى بنى عذرة فنزلت فى بعض بيوته فرأيت جارية قد ألبست من الجمال حلة الكمال فأعجبنى حسنها وكمالها فخرجت فى بعض الأيام أدور فى الحى وإذا أنا بشاب حسن الوجه عليه أثر الوجد أضعف من الهلال وانحل من الخلال وهو يوقد نارًا تحت قدرٍ ويردد أبياتًا ودموعه تجرى على خديه فسمعته يقول:

فلا عنك لى صبر ولا فيك حيلة ... ولا منك لى بدٌّ ولا عنك مهربُ
ولى ألف باب قد عرفت طريقها ... ولكن بلا قلب إلى أين أذهب

فلو كان لى قلبان عشت بواحد وأفردت قلبًا فى هــواك يعــذب

فسألت عن الشاب وشأنه فقيل لى يهوى الجارية التى أنت نازل بيت أبيها وهى محتجبة عنه منذ أعوام، فرجعت إلى البيت وذكرت لها ما رأيت، فقالت: صلاح حاله فى أن لا يرانى، فحسبت أن امتناعها فتنة فيها فما زلت أقسم حتى أظهرت القبول مكرهة، فلما قبلت ذلك منى قلت: أنجزى الآن وعدك فدتك روحى، فقالت: تقدمنى فإنى سائرة فى إثرك فأسرعت عند الغلام، وقلت: أبشر بحضور من تريد فإنها مقبلة نحوك الآن، فبينا أنا أتكلم معه إذ خرجت من خبائها مقبلة تجر أذيالها وقد أثارت الريح غبار أقدامها حتى ستر الغبر شخصها، فقلت للشاب: ها هى قد أقبلت، فلما نظر إلى الغبار صعق وخر على نار أمامه فما أقعدته إلا وقد أخذت النار من صدره ووجهه فرجعت الجارية وهى تقول: من لا يطيق غبار نعالنا كيف يطيق مطالعة جمالنا.

* * *

كناس بنى عذرة

قال الأصمعى: بينا أنا سائر فى أحياء بنى عذرة إذ سمعت صوتًا يقول:

جنبونى ديار هند وسعــدى ليس مثلى يحل دار الهوان

فالتفت يمنة وشمالاً فإذا الصوت خارج من حش فأقبلت حتى وقفت عليه فإذا بكناس يكنس الأرض، فقلت: سبحان الله أنت تكنس فى أحياء عذرة وتقول: «ليس مثلى يحل دار الهوان» فأنى ذلك وأى هوان أكثر مما أنت فيه فرفع رأسه إلىّ وقال:

لا تلمنى فإننى نشـــوانُ أنا فى الملك ما سقتنى الدنان

* * *